الفصل الثانى

الرواة ووضع الشعر

والحديث عن قضية النحل فى الشعر الجاهلى ، يجرنا إلى الكلام عن مشكلة روايته وتدوينه ، فما وصلنا من الشعر العربى قبل الاسلام كان بوساطة الرواية . لهذا فاننا نختلف مع ابن عبدربه فى العقد الفريد حيث يزعم أن معلقات شعراء الجاهلين كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة . ورأى أنه قد وقع فى الخطأ عندما نسر مع المتأخرين كلمة معلقة فأطلقها عليها .

«عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، كتبها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ومذهبه زهير ... والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات»[١] .

نحن نرفض هذا الزعم وننكره ، ونرى أن الشاعر الجاهلى كان يلقى قصيدته على الناس فيأخذها عنه الجمهور ويرويها . لم تدون هذه القصائد ، ولم تنشر فى كتب ، ودليلنا على هذا أن القرآن الكريم برغم أهميته وقداسته ، لم يجمع فى كتاب واحد الا بعد وفاة الرسول عليه السلام وباتفاق بين الخليفة أبى بكر الصديق رضوان الله عليه والصحابة .

وبرغم ماتتمتع به أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من مكانة فانها هى الأخرى لم تدون تدوينا كليا وعاما الا بعد مرور قرن من الهجرة ، فلا غرابة اذن أن تكون الرواية هى الوسيلة لوحيدة لتناقل الشعر الجاهلى فى أنحاء الجزيرة العربية . ويزعم ناصر الدين الأسد أن شعراء عصر ماقبل الاسلام كان لهم دواوين وان رواة الشعراء كانوا يسجلون القصائد فى كتب وصحف[٢] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ص ١١٩ ـ حـ ٦ .

(٢) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى ص ١٩٠ . ١٩١ .

ونختلف معه فى زعمه ، ونرى أنه كان لكل شاعر من شعراء الجاهلية روايته ، وأكثر هؤلاء الرواة من قبائل مختلفة فى شبه الجزيرة العربية .

كان لزهير بن ابى سلمى راويته كعب ابنه ، وكان هدبة بن خشوم العذرى راوية الحطيئة ، وكان جميل بثينة راوية هدبة ، والأعشى راوية لخاله المسيب بن علس ، وأما أبو ذؤيب فكان راوية لابن جؤية الهذلى . وكان المرقش الأصغر راوية لعمه المرقش الأكبر ، وفى العصور الأولى للاسلام كان لكل شاعر راويته أيضا[١] .

وانت راجد أن جميع هؤلاء الروة كانوا شعراء ، فرأينا كل شاعر منهم يأخذ عن سابقه ويسلم الرواية إلى من سيلحقه .

وما نظن انهم اتخذوا الكتابة وسيلة لتدوين هذه القصائد - كما يزعم - ناصر الدين الأسد - لسببين :

أولاً : ان الكتابة لم تكن منتشرة انتشارا واسعا بين أفراد المجتمع الجاهلى فى ذلك الوقت .

ثانيا : ان وسائل الكتابة لم تكن يسيرة وانما كانت معقدة ، وتجسدت فى الكتابة على الحجارة أو سعف النخل والجلود . وكلها أسباب ما نظن أنه يسهل على الشعراء أو الرواة اتباعها .

ومانراه أن هؤلاء الروة كانوا يلازمون الشعراء ملازمة الظل ، وكثيرا ما اجتمعوا فى جلسات ينشدون فيها قصائدهم ويفتخرون بها .

---

(١) ارجع إلى :
أ - الاصفهانى : الأغانى .
ب - المرزبانى : الموشح .
جـ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ١ .

ويذكر صاحب الأغانى انه فى بعض الأحيان كان للشاعر أكثر من رواية وهو على قيد الحياة ، فقد كان للأعشى ثلاثة رواة ، بينما يذكر ابن قتيبة انه كان للأعشى راوية واحد وهو عبيد .

«وكان عبيد هذا يصحب الأعشى ، ويروى شعره ، وكان عالما بالابل وله يقول الأعشى فى ذكر الناقة[١] .

لم تعطف على حوار ولم يقـ ـطع عبيد عروقها من الخمال[٢]

وقال أيضا ابن قتيبة[٣] .

«حدثنى الرياشى عن مؤرخ من شعبة عن سماك عن عبيد راوية الأعشى ، قال : قلت للأعشى ، ماذا أردت بقولك :

ومـدامة ممـا يعتـق بابـل كـدم الذبيـح سلبتهـا جريالهـا

ويضيف الأصفهانى والجواليقى إلى عبيد هذا اسمين آخرين يحيى بن متى وقال عنه :

«كان نصرانيا عباديا وكان معمرا ، قال : كان الأعشى قدريا ، وكان لبيد مثبتا . قال لبيد[٤] .

من هـداه سـبل الخيـر اهـتدى ناعـم البال ومـن شـاء أضـل

ويذكر الجواليقى اسم يونس بن متى كأحد رواة الأعشى .

ونرى أن هذه الأسماء الثلاثة لرواية واحد وهو عبيد .

«فكيف اختلفت الاسماء اذن ؟ لقد كان الرواية عباديا من نصارى الحيرة ، فالغالب على ظننا أن يكون اسمه فى أصله ، وهانس أو وحانس ،

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٦. جـ ١ .
(٢) الحوار : ولد الناقة ، الخمال : داء يأخذ فى مفاصل الانسان وتوائم الخيل والابل .
(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٦. جـ ١ .
(٤) الاصفهانى : الأغانى جـ ٩ .

ثم مر هذا الاسم عند العرب فى طورين ، الأول الترجمة ، والثانى ، التقريب . ففى الطور الأول ترجموا معنى اسمه الذى يدل على العبودية للخالق فجعلوه فى العربية عبيدا . وأما طور التقريب فقد مر أفقيا فى مرحلتين ، الأولى مرحلة حرفية لا تتغير عن الأصل كثيرا ، فعربوا يوهانس وجعلوه يونس . وأما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة غير مباشرة ، وذلك أن يوحنا هو طور من اطوار هذا الاسم : يوحانس ، فجاء العرب فعربوا يوحنا وجعلوه يحيى .

«فنحن اذن نرجح ، لما فصلناه من وجوه الرأى ، ان هذه الاسماء الثلاثة المختلفة فى ظاهرها ليست الا اسما واحدا فى حقيقتها ، يدل على رواية أحد بعينه»(١) .

ولم تقتصر رواية الشعر على الشعراء فحسب ، وانما وجدنا افراد القبيلة يهتمون بهذه الظاهرة ، ويأخذون عن شعرائهم ، ذلك لأن الشعر سجل يرصد مفاخر القبيلة ، ويكشف النقاب ، عن أمجادها وانتصاراتها فى الحروب . بل كان افراد القبائل الأخرى يتناقلون هذا الشعر ويذيعونه بينهم . ذلك لأن الشعر الجاهلى يمثل تاريخ العرب فى عصر ماقبل الاسلام . وقد ذكر فيه الشعراء أيامهم وحيواتهم واخبارهم . بل أنت واجد المسلمون وبرغم اهتمامهم بالعقيدة فى صدر الاسلام لم يهملوا الشعر الجاهلى ، وكثيرا ما رووه وتناقلوه بقصد ذكر حيوات قاطنى الجزيرة العربية .

قال صابر بن سمره :

«جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . اكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٢) .

---

(١) ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٤١ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ص ٩٥ جـ ١ .

ومن حديثنا عن النقد الأدبي في العصر الأموي نقول أن الشعراء ارتدوا بالقصيدة العربية إلى ما كانت عليه قبل الاسلام حيث العصبية القبلية ، وكان هذا دافعا لاهتمام القبائل برواية الشعر الجاهلي لأنه كما أشرنا ، كان مرآة حياتهم ، وراحت القبائل في العصر الأموي تتناقل هذا الشعر حتى يعرفوا الكثير عن اعدائهم ، وأخذ الأبناء هذا عن الآباء ، واهتموا بانشاده ورأوا فيه سلاحا يفتك بخصومهم ، ورأينا الخلفاء وقد اهتموا بهذه القضية ، وراح القصاص الذين كانوا يعظون الناس في المساجد يتخذون من الشعر الجاهلي مادة خصبة لهم وجعلوا ينثرون قصائده .

«وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء وكانوا كثيرا ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتا ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن اجابته تحسن له جائزتهم ، وكان أبناؤهم على غرارهم ، وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيردون فيه بريدا إلى العراق يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه ، وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

«ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي مايروى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عبيد بن شرية الجرهمي من صنعاء اليمن ، ويتخذه سميرا له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهالة ماعنده من العلم بذلك ، فأتخذ غلمانا يقيدون في دفاتر

مايذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها فى الجاهلية وأشعارها .

«ومنذ وقت مبكر فى صدر الاسلام نرى القصاص يجلسون للعظة فى المسجد الجامع ، وكانوا كثيرا ماينثرون الاشعار الجاهلية التى تتصل بوعظهم فى تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير تعنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجرى على ألسنة شعرائهم . وفى أثناء ذلك كان الشعراء الاسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم على نحو مانعرف عن الكميت والطرماح . ولم يكن هناك شاعر مبرز الا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم .

«ويخيل إلى الانسان انه لم يبق عربى فى العصر الاسلامى وما وليه من أوائل العصر العباسى الا وهو يروى الشعر الجاهلى ، ان هو تحدث أو وقف خطيبا ، وتمثل الحجاج بالشعر فى خطابته ذائع مشهور»[1] .

وكثيرا أن يزعم شوقى ضيف بأن كل عربى ومسلم فى العصور الاسلامية راح يروى الشعر الجاهلى ، فليس كل فرد فى هذا المجتمع صورة مستوحاة من الحجاج . جاز لنا القول ، بأن الكثير من أبناء تلك العصور الاسلامية قد تناقلوا هذا التراث ، ولكن السبل تفترق بنا مع شوقى ضيف عندما يزعم أن كل عربى فى هذه المجتمعات كان يروى الشعر الجاهلى ، فلو كان هذا كذلك لوصلنا الكثير من الشعر الجاهلى وكنا فى غنى عن قضية الوضع .

وظهرت فى العصر العباسى مدرستان من الرواة ، المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية . وعرف أصحاب الكوفة بعدم الالتزام بتحرى الدقة فى

---

(١) شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ١٤٥ - ١٤٧ .

رواياتهم ، الأمر الذى أثار الشك فى شعرهم فكان موضوعا فى أكثره ، ولهذا تقدهم أصحاب البصرة نقدا لاذعا ، فوجهوا اليهم هجوما عنيفا لما عرفوا عنهم من خاصية النحل ، ولم يقف أنصار الكوفة جامدين وبادلوا أصحاب البصرة الهجوم ، وهكذا ، راح كل فريق يطعن فى روايات الآخر ويشك فيه .

وجاز لنا القول ، آن مدرسة البصرة كانت أقرب إلى الصواب من مدرسة الكوفة ومع ذلك فأننا لا نعفى أصحاب البصرة فيما وصلوا اليه ، حيث لم تسلم رواياتهم فى بعض الاحيان من وضع . ونرى أن السمات التى اتسم بها رواد المدرستين هى التى أدت إلى الخصائص المتميزة لكل منهما . فقد اتسم أبو عمر بن العلاء زعيم البصرة بالامانة والصدق ، وكان أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم .

يقول عنه الجاحظ :

«كان أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب العصماء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف»(١) .

ويذكر صاحب الأغانى رواية يقول فيها :

«مازدت فى شعر العرب الا بيتا واحدا ، يعنى مايروى للأعشى من قوله :

وأنكرتنى وما كان الذى نكـرت من الحوادث الا الشيب والصلعا(٢)

أما حماد زعيم رواة الكوفة فكان من الموالى ويقول عنه صاحب الاغانى انـــه :

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ـ ص ٣٢١ ـ جـ ١ .
(٢) الاصفهانى : الأغانى ـ ص ١٤٣ ـ جـ ٣ ـ القاهرة دار الكتب .

«كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره ، ويقدم عليهم وينادمهم ، يسألونه عن أيام العرب وعلومها»[١] .

ويقول أيضا :

«كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون - حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا يرمون بالزندقة»[٢] .

مانظن أن رجلا زنديقا ، يشرب الخمر ، بعيدا عن قواعد الدين ، يكون أمينا فى روايته ، ولهذا اشتهر حماد بكثرة الوضع فى رواياته .

وبسبب معرفته الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها كما ذكر صاحب الاغانى - فقد اطلقوا عليه اسم الراوية .

«ذكر ان الوليد بن يزيد قال[٣] له :

- ربما استحققت هذا اللقب ، فقيل لك ، حماد الراوية ؟

قال :

- لانى أروى لكل شاعر تعرفه ياأمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لاكثر منهم ممن تعرف بأنك لم تعرفهم ولم تسمع بهم ، ولا أنشد شعرا لقديم ، ولا محدث الا ميزت القديم منه من المحدث .

فقال :

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢٤ - جـ ٢ - القاهرة دار الشعب .
(٢) المرجع السابق ص ٧٢٤ .
(٣) يعنى حماد .

- ان هذا العلم وأبيك لكثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟

قال :

- كثير ، ولكنى أنشدك على أى حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية ، دون شعر الاسلام .

قال :

- سأمتحنك فى هذا الامر .

وأمره بالإنشاد ، فأنشد حتى ضجر الوليد ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر بمائة ألف درهم»[1] .

وأنا زعيم بأن حمادا كان كاذبا فى هذه الرواية ، ولم يكن صادقا مع الوليد ، فمع اقتناعنا بأنه كان عالما بكلام العرب ، ومع اقتناعنا بأنه كان على معرفة واسعة بأشعارهم وأخبارهم ، ومع اقتناعنا بأنه كان على دراية بأنسابهم وأيامهم .

أقول مع اقتناعنا بهذا كله ، لكنه كان مغاليا فى زعمه انه بمقدوره أن ينشد على أى حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهليين دون شعر الاسلام وانه أنشد الوليد الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلين .

ولو سلمنا ، بأنه أنشد الوليد هذا العدد الوفير من القصائد لشعراء الجاهلية فمن الحتم اللزام أن يكون الكثير منها منحولا ، وضعه حماد إو نسبه إلى هؤلاء الشعراء ، وشعراء الجاهلية منه براء .

والحقيقة أن حياة حماد قد لعبت دورا متميزا فى روايته للشعر ، فأصاب النحل الكثير من الاشعار التى رواها .

---

(١) ارجع الى : أ - الاغانى ص ٧٢٥ - جـ ٢ .
ب - ياقوت : معجم الادباء ص ٢٥٩ جـ ١٠ .

يقول عنه صاحب الاغانى :

«كان أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الانصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم مابلغ»[1] .

فماذا يكون ظننا برجل عايش الصعاليك واللصوص ، ومارس أعمالهم ، أظن اننا لا نغال إذا قلنا ان مثل هذا الراوية فاسد وفاسق ، بالرغم انه كان شاعرا يجيد صوغ الشعر . وكثيرا ما نظم شعر ونسبه إلى شعراء الجاهلية .

«وحكى بعضهم قال :

ـ كنا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيسياذ ، وقد اجتمع فيها عدد من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، اذ خرج بعض أصحاب المهدى فدعا بالمفضل الضبى الراوية ، فدخل ، فمكث مليا ، ثم خرج ذلك الرجل فدعا بحماد الراوية . فدخل ، فمكث مليا ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعا ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار ، وفى وجه المفضل النشاط ، ثم خرج حسين الخادم بعدهما فقال :

ـ يامعشر من حضر من أهل العلم . أن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حمادا الشاعر بعشرين الف درهم ، لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار العرب ما ليس فيها ، ووصل المفضل بخمسين الف لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعرا جيدا محدثا فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذ من المفضل :

---

(١) الاصفهانى : الاغانى ص ٨٧ جـ ٦ .

«فسألنا عن السبب فى ذلك ، فأخبرنا ان المهدى قال للمفضل لما دعا به

ـ انى رأيت زهير بن أبى سلمى قد افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا وعـد القـول فـى هـرم خيـر الكهـول وسيـد الحضـر

« ولم يتقدم قول قبل ذلك ، فما الذى أمر نفسه بتركه ، فقال له المفضل :

ـ ماسمعت فى هذا ياأمير المؤمنين شيئا ، الا انى توهمته يفكر فى قول ليقوله أو يروى فى أن يقول شعرا ، نعدل عنه إلى مدح هرم ، فقال :ـ دع ذا ، أركان مفكرا فى شئ من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أى دع ما أنت فيه من الفكر ، وعد القول فى هرم . فأمسك المهدى عنه :

«ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل فقال :

ـ ليس هكذا قال زهير ياأمير المؤمنين .

قال :

ـ فكيف قال :

فأنشده :

لـم الديـار بقنـة الحجـر أقـوين مـن حجـج ومن دهـر[1]

قفـر بمنـدفع النحـائت مـن ضغـوى بذات الضـال والسـدر[2]

دع ذا وعـد القـول فـى هـرم خيـر الكهـول وسيـد الحضـر

«فأطرق المهدى ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له :

ـ قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لابد من استحلافك عليه .

«ثم استحلفه بأيمان البيعة وكل ايمان محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له ، فلما توثق منه ، قال :

---

(١) القنـة : أعلى الجبل ، وما أشرف من الأرض ، الحجر : موضع .

(٢) النحائت : آبار بعينها ، ضغوى : دون المدينة .

ـ اصدقنى عن حال هذه الابيات ومن أضافها إلى زهير ؟

«فأتر له حينئذ انه قائلها ، فأمر فيه وفى المفضل بما أمر من شهرة أمرهما وكشفه»[١] .

وقد شكك بعض الباحثين فى الرواية ، وحجتهم أن المهدى تولى الخلافة عام ١٥٨هـ[٢] بعد موت حماد ، ويزعم البعض بأن هذا الراوية قد توفى عام ١٦٤هـ ، أو لعل البعض قد وقع فى الخطأ حول رواية بناء المهدى لقصر عيسباد ، فلقد زعم نفر بأنه قد بنى فى سنة ١٦٤هـ[٣] .

وسواء أصدق صاحب الاغانى فى هذه الرواية ، أو كانت من وضع الرواة ، فان ذلك لم يدفع بتهمة النحل عند حماد الذى كان سيئ السمعة ، عابثا ولاهيا ، وما نظن ان رجلا هذه طباعه يمكن أن يتحلى بالصدق فى كل رواياته .

ولناصر الدين الاسد رأى آخر ، حيث نراه يتعاطف مع حماد ، وينفى عنه تهمة الوضع .

«أما الخبر الثانى فهو عندنا ضعيف متهم كذلك ، وذلك لأن فيه حمادا (رجل عالم بلغات العرب ، وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل عنه ذلك فى الافاق) فقد كان حماد اذن شاعرا ، وأى شاعر ، كان شاعرا ذا قدرة على تصريف وجوه القول وفنون الشعر ، بل لقد كان شاعراً جمعت فيه الشعراء ، اذ قال قصيدة بلغت من القوة والمتانة ومن الفحولة والجزالة ، بل بلغت من

---

(١) ارجع الى :
أ ـ الاصفهانى : الاغانى ـ ص ٧٢٩ ـ ٧٣١ الشعب جـ ٢ .
ب ـ الاغانى ـ ص ٨٩ ـ ٩١ ، جـ ٦ دار الكتب .
(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى السنة ١٥٨ ط بريل ليدن .
(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى السنة ١٦٤ .

الفن الشعرى منزلة تجعلها حقيقة بأن تكون من شعر امرئ القيس أو النابغة أو طرفه أو سائر شعراء الجاهلية ، بحيث تنسب إلى أى شاعر من هؤلاء الشعراء وتدخل فى شعره ويحمل فى الافاق ، وهذا وحده فى الفن باطل ، ولكنه باطل من وجه آخر ، وهو ان حمادا قال شعرا أو خلف ديوانا رواه عنه غيره ، ولو كان له شعر لحرصوا على ذكره لانهم عنوا بتسجيل الشعراء وشعرهم ودراوينهم أولا ، ولان بذلك كان يقوى من رأى من اتهمه بالوضع والنحل ثانيا ، فكيف لم يذكر شعر حماد وديوانه ثم أيكون المرء شاعرا ، فى مثل هذه المنزلة من الفحولة والشاعرية ، فيصرف كل شعره إلى غيره وينحله اياه ، ويضن على نفسه بأن ينسب اليها بعضه»[1] .

وتفترق بنا السبل مع ناصر الدين الاسد ، ونحن نظلم حمادا اذا زعمنا بأن كل شعره منحول ، وللانصاف نقول انه التزم الصدق فى بعض الروايات بينما وضع فى روايات أخرى .

ويرى الاسد بأنه كان حريا بحماد وهو الرجل الذى قال عنه النقاد انه شاعر ، أن يجمع هذا الشعر فى ديوان ، ويضيف بأننا لم نقرأ له قصائد ، ولم نسمع عن راوية له .

ونقول ، بأنه يكفى حماد اطلاق قدامى النقاد فى العصر العباسى عليه علم أو راوية ، فروايته للشعر جعلته يتجاوز الافاق ، ولعل الرجل شعر بحدسه بأن شهرته كراوية تفوق شعرته كشاعر ، ونحن نلمس هذه الحقيقة ، فكثير من الشعراء عبر العصور الادبية المختلفة لم نسمع عنهم ، بينما شهرة حماد فى صناعة رواية الشعر ، فاقت مكانة بعض كبار الشعراء .

---

(١) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى : ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

وما ذكرناه من طباع اتسم بها الرجل جعلتنا نرى انه اتبع النحل فى بعض ماورواه .

«وكان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الاشعار ، أخبرنى ابو عبيده عن يونس قال :

قدم حماد البصره على بلال بن ابى برده . وهو عليها فقال :

- ما اطرفتنى شيئا ؟

فعاد اليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى . فقال :

- ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ، لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الحطيئة ، ولكن دعها تذهب فى الناس»[1] .

وهمذا ، يرى ابن سلام بأن حمادا كان غير موثوق به ، وهو بذلك يتفق مع غيره من نقاد العصر العباسى ، لهذا فاننا نرفض رأى ناصر الدين الاسد الذى يزعم فيه بأن الرجل كان من الثقاة .

واذا كانت الروايات قد اتهمت حمادا بالنحل ، فانها أيضا تشك فيما نسب إلى خلف من روايات ، ولم يكن عند بعض النقاد من الثقاة ، واتهمه مؤرخو الادب بالانتحال والكذب .

يقول المبرد :

«كان خلف أخذ النحو عن عيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن أبى عمرو ، ولم ير أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يضرب المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على السنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ - ٤١ .

ثم نسك فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالا عظيما خطيرا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك وقال :

- قد مضى لى فى مالا أحتاج إلى أن أزيد فيه .

«وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لانه قد أكثر الاخذ عليه ، وبلغ مبلغا لما يقاربه حماد ، فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الاشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له :

- أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة .

فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم»[1] .

ويقول المرزبانى عن أبى حاتم :

«ولما قدم الاحمص من بغداد دخلت اليه فسألته عمن بها من رواة الكوفة قال :

- رواة غير منقحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لابى داؤد الايادى قالها خلف الاحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون ، وبها يفتخرون»[2] .

وبينما نجد الاحمص فى الرواية السابقة التى نقلت عن أبى حاتم يتهم خلف الاحمر بالوضع ، نجد روايات أخرى ذكرها ابن سلام وغيره تشير إلى أن خلف الاحمر كان معلما للأصمعى بل معلم أهل البصرة ، وتشير الأخرى

---

(١) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ص ٧٥ - ٧٦ دار الكتب (مخطوطة) .
(٢) المرزبانى : المرشح ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

إلى مدح الاصمعى لخلف واعجابه به ، فيزعم ان بشاشة الشعر قد ذهبت بعد خلف[١] .

ويرى ناصر الدين الاسد ان خلفا بعيد عن التهم التى وجهت اليه ، ويجد هذا الناقد المعاصر غرابة فى تناقض آراء الاصمعى ، فكيف لخلف يكون معلما له ، وفى ذات الوقت يتهمه بالوضع والنحل ، ويزعم ناصر الدين الاسد ان رواة البصرة هم الذين اتهموا خلفا ، برغم انتمائه اليهم ، ويرى انهم يفعلون ذلك ليدعموا رأيهم فيما نسبوه إلى حماد ، وانه وضع وانتحل الكثير من الشعر[٢] .

وتفترق بنا السبل مع ناصر الدين الاسد ، فلا يعنى أن يكون خلف استاذا للاصمعى يجعلنا ننفى عنه تهمة الوضع ، فأحيانا يختلف التلميذ مع استاذه ، وينفصل عنه ويكون مدرسة لها ملامح شخصيته المستقلة ، وهذه ظاهرة قديمة قدم العصور ، ولنا فى افلاطون وأرسطو مايدعم رأينا ، فقد كان أفلاطون استاذا لارسطو ، لكن الاخير اختلف مع معلمه فى الاراء والافكار مما دفعه إلى الانفصال عنه وكون مدرسة فكرية متميزة .

أما التفسير الثانى الذى حاول فيه هذا الناقد المعاصر ان يجعل مدرسة البصرة تشك فى روايات خلف برغم انتمائه اليها ، فأرى انه تفسير ساذج ، تجاوز فيه الناقد الحجة ، وما نظن ان اصحاب البصرة يوجهون مثل هذه التهم إلى احد أتباعهم وهم يعلمون جيدا انه من الاعلام ولقد كان حريا بهم ان يعجبوا به ويدافعوا عنه .

---

(١) ارجع إلى :
أ - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء . ص ٢١ .
ب - ابن الانبارى : نزهة الالباء فى طبقات الادباء . ٧ نشر على يوسف .
جـ - الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٧٩ .

(٢) ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥٤ - ٤٦٢ .

ومع ايماننا بأن خلفا قد انتحل الشعر ووضعه ، لكننا لا نزعم بأن كل ما رواه الرجل كان موضوعا ، فالكثير من رواياته ترقى إلى الثقاة وتصل إلى مرتبة الصدق .

ولنا أن نقول بعد هذا العرض الذى ذكرناه عن رواية الشعر الجاهلى ، إن هذه الرواية قد سيطرت على اهتمام قدامى العلماء والنقاد ، وعلينا ألا نجعل من كثرة الطعون التى وجهت اليها سبيلا إلى النيل من هذا التراث وحقيقته .

أقول اننا عندما نشك فى هذا الشعر فنكون بذلك قد واكبنا المستشرقين الذين راحوا يتهمونه بالوضع ، ولنا فى الثقاة أسوة حسنة ، وعلينا ان نسير فى ضربهم ونشك فيما شكوا فيه ، وما نظن ان هؤلاء الثقاة قد زيفوا الحقائق فقد عملوا من أجل الصدق والامانة ومن بين هؤلاء المفضل والاصمعى .

فمن حقنا ان نقبل الروايات التى أجمع عليها العلماء ، وأن نرفض منها ما اختلفوا فيها .

كما يتضح لنا من كل ما أسلفنا أن الشعر الجاهلى قد دخل فيه وضع كثير ولقد أشار إلى قضية الانتحال فيه الكثير من قدامى النقاد فى العصر العباسى والمستشرقين فى العصر الحديث وبعض النقاد العرب المعاصرين ، وأثيرت الاراء عن أسباب هذه القضية ، والعوامل التى أدت إلى ظهورها ، ولعل أول القدماء ممن تحدثوا عن هذه الدوافع ابن سلام .

ويرى ابن سلام ، ان السبب الأول يعود إلى نوعية المصدر الذى استقى منه بعض الرواة رواياتهم ، بمعنى ان هؤلاء الرواة اخذوا الشعر من كتاب إلى كتاب ولم يأخذوه من المصدر الاصلى (أهل البادية) ، فلو أن هؤلاء الرواة رجعوا اليهم أو عرضوه على العلماء ما وقعوا فى خطأ النحل .

ويرجع ابن سلام السبب الثانى إلى ضياع الكثير من الشعر بسبب موت العرب اثناء غزو فارس والروم ، وعنده ان السبب الثالث انما يرجع إلى النعرة القبلية ، وذكر محاسن هذه العشائر ، وكثيرا ما قالت القبائل شعرا لشعراء لم ينشدوه .

«لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استغل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على السن شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد فزادوا فى الاشعار»[١] .

ويضيف الجاحظ معاصر ابن سلام إلى هذه الاسباب عاملين آخرين ، فيرى ان الشهرة ورغبة الاديب فى الظهور ، قد تدفعه إلى اتخاذ هذه القضية كوسيلة لاثارة انتباه القراء ، فينسب عمله إلى غيره من الادباء السابقين او المعاصرين .

اما العامل الثانى عنده فيرجعه إلى العصبية بنوعيها القبلية والشعوبية ، ولقد سبقه إلى العصبية القبلية ابن سلام ، وعن العصبية الشعوبية يقول ابن عثمان :

«ونحن لا نستطيع ان نعلم أن الرسائل التى بأيدى الناس للفرس ، انها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل ابن هارون وابى عبيد الله ، وعبد الحميد وعيلان ، يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا منها تلك السير»[٢] .

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٣٩ .
وعن هذه الأسباب إرجع إلى نفس المصدر ص ٦ ، ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ص ٢٩ جـ ٣ .

وأنت واجد الجاحظ لم يقتصر فى حديثه عن قضية النحل فى الشعر فحسب وانما تراه يتحدث عن الوضع فى الخطابة والتأليف والترجمة ، بينما جعل ابن سلام كلامه مقصورا على الشعر فقط ، لانه موضوع كتابه طبقات الشعراء .

ونحن نتفق مع الجاحظ فى ان الوضع قد أصاب جميع الاجناس الادبية منذ الجاهلية وصدر الاسلام ، لكن الشعر الجاهلى شغل تفكير العلماء ، وأثار آراء النقاد من القدامى فى العصرين الاموى والعباسى ، والمحدثين من المستشرقين ، والمعاصرين من النقاد العرب .

obeikandl.com